الحملات العسكرية الآشورية – الدوافع والتداعيات

أ. م. د. عماد طارق توفيق

قسم التاريخ/ كلية التربية للبنات

جامعة بغداد

الحملات العسكرية الآشورية – الدوافع والتداعيات

أ. م. د. عماد طارق توفيق

مقدمة:

شكّل التاريخ الآشوري منعطفاً تاريخياً في الحضارة العراقية القديمة شمل كافة مناحي الحضارة لاسيما العسكرية. وكثيراً ما شكلت الحملات العسكرية للآشوريين دافعاً قوياً لدى الملوك عبر التاريخ، فكانت لها أسباب ونتج عنها تداعيات على مستوى العلاقات الدولية وكانت مسارحها في مختلف الجهات وإن كانت معروفة.

ينتسب الآشوريون إلى مدينة آشور (الشرقاط حالياً) وهي العاصمة الأولى واسم الإله القومي والتي كانت تسمى في العصر الأكدي كاسر والبلاد سوبارتو وهم من الأقوام السامية، وبعض الباحثين رأى أنهم قدموا من الجنوب أي بلاد بابل وهذا اعتقاد خاطئ[1]. إذ أنهم من الساميين الجزريين الذين قدموا مع الهجرة الأمورية من سوريا. ولطول المدة الزمنية للتاريخ الآشوري فقد قسم المؤرخون التاريخ إلى ثلاثة أقسام.

التاريخ الآشوري: العصر الآشوري القديم، العصر الآشوري الوسيط، العصر الإمبراطوري.

خلال العصور الآشورية لا تكاد مدة تمر دون أن تكون هناك حملة عسكرية واحدة على الأقل، اتخذت أوضاعاً مختلفة ودوافع عديدة. نحاول في هذا المبحث تسليط الضوء على دوافعها وتداعياتها.

الحملات العسكرية جهاتها ودوافعها:

العصر الآشوري القديم (٢٠٠٠-١٥٢١ ق.م):

وفق المصادر الآشورية يعتبر الملك ايلو-شوما (١٩٦٢-١٩٤٢ ق.م) أول ملك يقوم بحملة عسكرية على بلاد بابل ولا يعلم الدافع وراء التحرك العسكري لكنه يردف قائلاً أنه أعاد الحرية إلى مدينة أور ونفر ربما من السيطرة العيلامية ودفع الخطر الأموري وإن كان

الهدف المحتمل السيطرة على الطرق التجارية في هذه المنطقة الموصلة إلى بلاد عيلام والخليج العربي، ولهذا فالاحتمال المنطقي أن السبب تجاري بمعنى السيطرة على طرق التجارة الخارجية وهو بدون شك فتح الطريق نحو الخليج العربي.

لكن من أبرز ملوك العصر شمشي أدد الأول الذي سيطر على عرش آشور بمساندة من ملوك سلالة بابل الأولى بالأخص من حمورابي، وكان يحكم من مدينة ايكالاتوم فكانت حملته ضد مملكة ماري (تلول الحريري قرب البوكمال السورية)، وواصل حملته وصولاً إلى لبنان وهنا يعني السيطرة على غابات الأرز كون الأخشاب تمثل تجارة مربحة للآشوريين[٢].

إذاً فمنذ البداية كان المسار وراء تكرار الحملات العسكرية في المقام الأول تجارياً وهذا لا يعني في كل الأحوال حب دافع التوسع والسيطرة على شبكة الطرق والموانئ التجارية.

العصر الآشوري الوسيط (١٥٢١-٩١١ ق.م):

يمكن اعتبار العصر الآشوري الوسيط القاعدة التي تأسست فيها أسس العقيدة العسكرية للآشوريين ويمكن وصفها بأنها أهم مرحلة ومحطة في التاريخ الآشوري وقد صاغ قواعدها ومرتكزاتها ملوك أقوياء من الطراز الأول هم أساساً عسكريو النشأة والتوجه، وقد ساهمت ظروف محيطة بالآشوريين في بلورة العقلية العسكرية لهم والتي غالباً ما شكلت ضغطاً كاد أن يعصف بالوجود الآشوري لولا حنكة ملوكهم وتدبيرهم وقراءتهم للعلاقات السياسية وقتذاك.

فقد تعرض الآشوريون لخطر المملكة الميتانية شرقاً والآراميين غرباً ولاحقاً مملكة أورارطو حول بحيرة وان التركية وهذا كله دفع الآشوريين للاهتمام بالجانب العسكري والاعتماد على جيش مدرب ومؤهل لخوض معارك وصف بعضها بالشرسة أو الدموية.

بعض الحملات المتكررة أخذت منحى انتقامي أو تأديبي والبعض الآخر اقتصادي مع الأخذ بنظر الاعتبار حاجة الآشوريين للتوسع والسلطة.

ولم تكن كل الحملات هدفها واحد بل يمكن بعضها أن تكون مساندة لتدخل عسكري أو لقيادة انقلاب في ممالك أخرى، وهذا ما شاهدناه في تدخل شمشي أدد الأول ضد مملكة ماري في العصر السابق ومساندة حركة التمرد ضد الملك يريم–ليم.

في بداية العصر وتحديداً عهد الملك أريبا–أدد الأول (١٣٩٢–١٣٦٦ ق.م) تدخّل الآشوريون عسكرياً لصالح أحد الفريقين الميتانيين في الصراع على العرش، ولكن بعد فترة اضطر الآشوريون إلى دفع الجزية لدرء الخطر الميتاني، علماً أن مملكة الميتانيين عاصمتها نوزي قرب كركوك شكلت خطراً جسيماً للوجود الآشوري كونها أمام حدود المملكة الآشورية، وبحكم موقعها هذا فقد كانت الخطوط التجارية من الشرق تخترق أراضيها. لكن الملك الآشوري آشور–أوبالط الأول الذي حكم بين الأعوام (١٣٦٥–١٣٣٠ ق.م) تخلص من التبعية الميتانية، هنا نلاحظ تداعيات أو نتائج التخلص من الميتانيين يعني فتح خطوط التجارة الشرقية ودرء الخطر عن حدود المملكة الآشورية حينذاك، وبالعموم كان العداء التقليدي بين آشور من جهة والممالك الحثية والميتانية والكاشية قد أسس لاستراتيجية ظلت ملازمة للدولة الآشورية طيلة العصر الوسيط[٣].

وحقيقة الوضع تعد سمة الحروب المتكررة في العصر سمة بارزة، ولعل من الأسباب إحاطة بلاد آشور بقوى مختلفة وتحديات عديدة منها أن المنطقة الشرقية الجبلية تسكنها قبائل الگوتيين واللولوبيين فكانت الحملات تأديبية لاتقاء شرها، وفي الغرب فالسهوب والأرض المنبسطة المفتوحة أمام الجيوش المناوئة أو القوات الغازية فالسيطرة عليها يعني ببساطة وضع اليد على صمام الأمان الحيوي للآشوريين ولا ننسى أنها تمثل خطوط التجارة العالمية في تلك الفترة فضلاً عن فتح نافذة على موانئ البحر المتوسط. أما في الجنوب فخصوبة الأرض مصدر مهم للزراعة وهي الطريق الموصل إلى الخليج العربي.

وهذا ما يفسر لنا أن الاعتبارات الجغرافية كانت مفتاحاً لسلسلة الحروب الكثيرة فضلاً عن الغزوات والتحركات في الجزيرة وغيرها[٤].

صاحبت الحركات العسكرية مشاهد تدمير المدن وإحراقها، ولجأ الملوك إلى قاعدة التهجير القسري للسكان لاسيما المدن التي تتكرر فيها الثورات وإحلال آخرين مكانهم. ولعل بروز القوة الآشورية جعل التقارب المصري–الحثي واضحاً في هذا العصر.

إن أسس تثبيت الوجود العسكري للآشوريين والسياسة المتبعة لدى الملوك بدأت مع تولي ملوك أقوياء. وضمت الحوليات أوصافاً كاملة لسير الحملة والتي يبدأها الملك بنسبها

إلى الإله آشور وبقوته ومساندة الإلهة عشتار وقوة سلاحها يكون النصر معقوداً مع الملك وقواته.

وبهذا الصدد تذكر حوليات الملك شلمنصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) إخضاعه الجبال المنيعة لأورارطو (مملكة في محيط بحيرة وان التركية حالياً) وبلد الگوتيين المتضلعين بالمغازي (إشارة إلى غزواتهم المتكررة) فضلاً عن كون سياسة التدخل العسكري سمة بارزة أخرى ضمن سمات العصر ومثالنا توكولتي ننورتا الأول في العرش الكشي[٥].

ومثلما أشرنا فالسياسة الخارجية الآشورية مثلتها ثلاث جبهات، الأولى كانت خط النزاع الدائم وهي المنطقة الجبلية والمرتبطة بالهجمات والإبادة أو إعادة الاستيطان في مدن جديدة وهذه المنطقة مكنت بلاد آشور من الحصول على جند واستيراد الخيل المهمة لسلاح الفرسان.

وبذلك تعد من الناحية العسكرية مهمة فضلاً عن تأمينها باعتبارها واجهة الصد أمام آشور. فيما كانت الجبهة الثانية بابل وحكمتها الكراهية والتنافس بين الطرفين للوصول إلى الخليج العربي والسيطرة على المراكز التجارية مع ممالك الخليج وقتذاك.

أما الجبهة الثالثة فهي الغربية وصولاً إلى ساحل البحر المتوسط وابتداءً من عهود الملوك أدد نيراري الأول حيث وصل كركميش ثم شلمنصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) وتقدم تجلات بليزر الأول (١١١٥-١٠٧٧ ق.م) والذي وصل تدمر. وقد استمر التقدم الآشوري وصولاً إلى ساحل البحر المتوسط ثم لاحقاً دخول مصر في العصر الإمبراطوري[٦].

ولأول مرة كانت حملة الملك شلمناصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) الموجهة إلى مملكة أورارطو هي الأولى فضلاً عن مملكة خانيكلبات وقد ذكر قبيلة الأحلامو أو الأخلامو الآرامية، فيما غزا ابنه توكولتي ننورتا الأول (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) بابل وضمها لمملكته طوال ٧ سنوات وكان ذلك في عهد الملك الكيشي كاشتلياش الرابع[٧].

لقد حاول الآشوريون فرض الوحدة بقوة السلاح على الشعوب التي خضعت لهم، لكن الممالك الآرامية لم تكن لتقبل بقيادة واحدة كونها تهدف لفرض الزعامة الآشورية وهذا لم

يكن يروق للاستراتيجية العسكرية الآشورية، عليه لاحظنا اندفاع الملوك الآشوريين في سوريا وصولاً إلى موانئ البحر المتوسط(٨).

هنا نلاحظ استمرار قيادة الحملات العسكرية ضد القبائل الآرامية منها على سبيل المثال إن تجلات بليزر قاد ١٨ حملة تأديبية ضد الآراميين، والخطوة الثانية له فتح البلاد السورية، ولقوة الحملة لجأت المدن الفينيقية إلى تقديم هدايا الولاء للفاتحين الآشوريين فضلاً عن تسهيل عمليات قطع الآشوريين للأشجار في الجبال(٩).

كانت من ضمن أولويات الحملات العسكرية في هذ العصر واللاحق الظفر بأكبر عدد ممكن الغنائم، بهذا الصدد أشار الملك أريك–دن–ابلي (١٣١٩–١٣٠٨ ق.م) إلى جلبه مواشي وأغنام في حملته ضد قبائل التوروكو ونجيمخي القاطنة في المناطق الجبلية الشرقية فضلاً عن قبائل السوتو والأخلامو الآرامية في سوريا ومنطقة الفرات الأوسط، وكذلك فإنه خاض حرباً ضد الملك الكاشي تازي مرتاش في بابل.

واستمرت الحملات أيام الملك أدد–نراري الأول والتوسع في مدن منها لوبيدي وأرض رابيقوم وفضلاً عن العاصمة الميتانية واشوكاني، وقد واصل عملياته العسكرية في المناطق الغربية والشمالية قصد ضمها للسلطة الآشورية(١٠).

من أهداف الحروب الآشورية السيطرة على طرق التجارة والاستحواذ على السلع التجارية، هذا من جانب، أما الرأي الآخر فيرى أن العلاقات التنافسية القائمة بين المدن المختلفة هو الآخر يقود للحرب، ويمكن عد العامل الاقتصادي أحد أسباب النزعة العسكرية منذ الألف الثالث ق.م وأحياناً كان السبب المباشر في النزاعات التجارية(١١).

لقد أشرنا سابقاً لقوة الملك تجلات بليزر الأول الذي نجح في وقف زحف قبائل الأفريجيين في الشمال وفي ذات الوقت خاض حروباً ضد القبائل الآرامية التي تمركزت على طول نهر الفرات في قسمه العلوي والتي نجحت على ما يبدو من عبور النهر صوب بلاد آشور وأنه انتصر على الجموع الآرامية فارضاً الجزية على مدن الساحل السوري واللبناني(١٢).

إذا قلنا إنه لم يكن الملك الآشوري يتسلم السلطة إلا ومن أبرز أولوياته القيام بحملة عسكرية مرة على الأقل، والحقيقة هذه نلمسها في عصور عديدة.

مثلاً في عهد شلمانصر الأول (١٢٧٤-١٢٤٥ ق.م) وتحديداً السنة الأولى من توليه العرش قاد حملة عسكرية شملت ثماني مدن أو بلدان شمال غرب آشور، ويذكر تدمير قلاع مدينة عرونا، وذكر مملكة أورارتو وقد استخدم بعض الشباب كجنود في خدمته (ربما مرتزقة).

فضلاً عن حملة أخرى ضد خانيكلبات (وهم بقايا المملكة الميتانية) وكانت شمال العراق، ويذكر في حولياته ضمه لمدن فيها الصناع المهرة في الصناعات الخشبية والمعدنية والمجوهرات والبناء، وقد نقل معظمهم إلى آشور. ولجأ إلى التهجير كأسلوب متبع لاحقاً في العمليات العسكرية الآشورية، هنا رحل من سكان خانيكلبات، واستخدم عقوبة العمى ربما لعين واحدة في معاقبة البعض. فيما قاد ابنه الملك توكولتي ننورتا الأول (١٢٤٤-١٢٠٨ ق.م) حملات ضد منطقة كوماني الجبلية شمال آشور وحملة أخرى ضد مدينة بابل والولايات الحورية بين طور عابدين وأعالي نهر دجلة واستولى على منطقة ير جاني-مادين والتي فيها مناجم النحاس، كما قاد حملة أخرى إلى أرض نائيري ولعلها نهاريا، ويصف مقاومة القبائل الجبلية بالشرسة.

ويستطرد قائلاً إن سبب نزاعه مع الحثيين هو احتلالهم لمدينة نهاريا رغم مطالباته بالانسحاب منها إلا أنهم رفضوا فكانت الحرب التي انتصر فيها[١٣].

واستمرت الحملات الآشورية المتكررة طيلة العصر الوسيط للجبهات آنفة الذكر والتي تراوحت أسبابها بين التوسع والانتقام أو التأديب وبين حماية طرق التجارة والسيطرة على مناجم الموارد الأولية قبل اكتشاف الحديد الذي سيغير الوضع في الشرق القديم وسيكون المادة الرئيسة في صناعة وتطور الأسلحة في العصر الآشوري الحديث.

العصر الآشوري الحديث/ الجيش الآشوري:

توافرت عوامل عدة ساهمت ببروز القوة الآشورية بوصفها إمبراطورية سيطرت على طرق تجارة العالم القديم بدأت بدءا من إيران وصولاً إلى مصر غرباً ومن الأناضول إلى

شمال الجزيرة العربية جنوباً، منها اكتشاف الحديد الذي ساهم في تطور الأسلحة عند الجيش الآشوري فضلاً عن الاهتمام بالجيش وصنوفه باعتباره اليد الضاربة، وكذلك صعود ملوكاً أقوياء كانت بصمتهم واضحة في تاريخ العلاقات السياسية الدولية، ولا ننسى أيضاً زوال قوى سياسية مؤثرة منها الكشيين في بلاد بابل والحثيين في الأناضول وضعف الإمبراطورية المصرية وانحسارها داخل إقليمها المصري.

قبل الخوض في تفاصيل مجريات الأحداث التاريخية لصعود القوة العسكرية الآشورية علينا ذكر شيء من التفصيل عن الجيش الآشوري بوصفه القوة الضاربة لملوك الإمبراطورية.

بدأ العصر مع بداية عهد أدد نيراري الثاني (٩١٢–٨٩١ ق.م) والذي عمل على تقوية الجيش، واستمر الملوك بعده بالاهتمام بالجيش وصنوفه التي تنوعت مع إدخال العربات الحربية للخدمة والتي اتصفت بهيكلها الثقيل الواسع وعجلاتها المدعمة والمغلفة بالحديد والمتنوعة حسب عدد الخيول التي تسحبها، وعليه فمحور العربة المصمم لأربعة خيول له عمود دعم خاص به للوقاية من الارتجاج الذي قد يتعرض له الراكب(١٤).

لقد ضم الجيش الآشوري الملكي القوات المتطوعة المسلحة تسليحاً خفيفاً ومهمتها التوغل عبر صفوف الأعداء لتحويل التردد إلى هزيمة ومن ثم تنقض على معسكر الأعداء لغنيمته، أما القوات الضاربة فتتألف من الكردو والوحدات القتالية القوية بوصفها الحرس الخاص المسؤول عن سلامة الملك الشخصية.

وبخصوص القوات المقاتلة فتحمل الدروع الدفاعية وأسلحتها هجومية كالهراوات والمقاليع وتعتمد بشكل أساس على رماة النبال والرماحين الراكبين والمهندسين والمدفعية، وكان حملة الرماح يزودون برماح طويلة خفيفة وفؤوس كبيرة ومن مهامهم القتالية تقويض الأسوار أو التصدي للأعداء.

لقد كان الأشخاص حليقي اللحى يمثلون الشبان، وقد استبدلت الملابس الطويلة منذ عصر الملك آشور بانيبال بقميص قصير يصل تحت الفخذ، وكان الجنود ينتعلون أحذية

عالية ويعتمرون بالخوذ فوق رؤوسهم، وقد صمموا أحذية مزررة للوقاية من الأراضي الوعرة، وشكل الخوذة صمم لحرف النبال عن الرأس(١٥).

أما بالنسبة لحماية جسم المقاتل فيمثلها ترس طويل بقدر حجم المقاتل، وله مؤخرة منحنية للوقاية الخاصة برماة السهام إذ كان سلاح الهجوم المتمثل بالسهام رئيسياً، وكان الرماة يمتطون الخيول أحياناً، فضلاً عن تسليح الخيالة برماح معتدلة الأطوال، وكانوا يزودون بخناجر قصيرة مع الرماة والرماحة، ولهم دروع كتانية أو جلدية مدعمة بصفائح معدنية.

أما القوة البحرية فالسفن الحربية تكون مستدقة الرأس قوية القاعدة مع تحصين الجدافين الذين يكونون بعيدين عن الأنظار، وبالعموم تحصن السفن بالدروع الدائرية التي يرتديها جنود السفينة الحربية(١٦).

في بداية تكوين الجيش الآشوري شكلت طبقة الفلاحين أساسه أي أنه أشوريا لكن في مطلع الإمبراطورية الثانية لجأ الملوك إلى إنشاء جيوش قائمة من سكان الولايات الخاضعة للحكم الآشوري، وكانت مسؤولية الحاكم تجهيز الملك بالخيول من إقليمه وكل ولاية لها صنف خاص من المحاربين.

برز قادة ورتب وأصناف، وبهذا الصدد الترتانو والرابشاقه وهم من كبار القادة ورئيس السبعين ورئيس الخمسين وهكذا.

كانت الأساليب والخطط متواجدة في حروب الإمبراطورية منها الكمائن ومباغتة الأعداء أو المتمردين، لكن العبء الأكبر يقع على عاتق المشاة الذين ينقسمون إلى قسم يحمل أسلحة خفيفة ومثالهم الرماة والمقاليع، والقسم الآخر يحمل أسلحة ثقيلة كالرماح يساندهم الخيالة أو الفرسان ذوي الرماح الطويلة والحراب. كانت الخيول بدون سروج في عهد السلالة السرجونية أصبحت حماية الخيول بالزرد واضحة.

ومن الصنوف ذات الأهمية في حسم المعارك راكبو أو سائقو العربات الخفيفة ثنائية العجلات والتي يسحبها فرسان أو ثلاثة أفراس تحمل ثلاثة أو أربعة مقاتلين. أما صنف الهندسة فناطت به حفر الأنفاق تحت الأسوار ودك الأسوار.

ساهمت الأسلحة المتنوعة من دبابات أو كبائش في دك وتدمير الأسوار الدفاعية[١٧].

والواضح حسب المصادر الآشورية وجود قوات محلية فضلاً عن قوات مختارة صغيرة مهمتها الاستعداد للقتال في الوسط حولها قوات الصاعقة والحرس الملكي وأبناء الذوات أو النبلاء الذين يحق لهم الركض إلى جانب عربة الملك "الأمن الملكي".

إن القوات الاحتياطية شملت بلاد آشور والمقاطعات التابعة للإمبراطورية وتجنيد شبابها تبعاً للقومية، فيما احتفظت القوات الوطنية بوحدات العربات والمشاة ورماة السهام وقوات العاصفة "قوات هجومية" والمهندسين وقوات الخدمات.

فيما يتعلق بقيادة القوات أثناء المعركة فحاكم المدينة العسكري يمكن أن يكون القائد هذا إذا اعتبرنا المعركة بحد ذاتها محدودة الأهداف أو ليست بمستوى حملة كبيرة.

لكن العمليات الكبيرة فغالباً ما تكون بإمرة الملك نفسه أو من كبار رجالات الدولة.

يطلق على القائد الأعلى الراب–موكي ومن الرتب الرابشاقه أو التارتان وهم من كبار القادة.

هناك وحدة الكرسو وقائد الكرسو الذي يطلق عليه رب كسري وبعده أمراء الخمسين وأمراء العشرة[١٨].

إن وجود جيش ثابت في بلاد آشور هو حراسة الملك ضد أي تمرد من حكامه الإقليميين الذين قد يصبحون أقوياء في الواقع.

تألفت سرايا الخيالة من مئة فارس وتطورت صنوف الجيش في الحقبة السرجونية وأصبحت في العمليات العسكرية يحمل الجيش القش أو التبن معهم لاستخدامه في إطعام الخيول فضلاً عن التموين الأساسي المؤلف من الحبوب والزيت كحصص توزع على الجنود.

تتقدم الجيش رموز الآلهة وهي تمثل ألوية الآلهة والتي كونها عبارة عن رموز خشبية أو معدنية على أعمدة يرافقها العرافون ورجال الدين، فالملك في عربة يحيط بها الحرس من النبلاء الشباب.

تتوزع فرق المشاة والخيالة في الجيش، ويمثل المشاة ذوي الأسلحة الخفيفة جناحي القوات الآشورية، وهؤلاء يكونون في حالة تأهب للانتشار بشكل مروحة(١٩).

إن القوة الرئيسية في القوات الآشورية تتكون من مجندي العشائر وكل قاطع بإمرة الحاكم الإقليمي لتأتي بعدها قوات النقل التي من مهامها بناء الجسور وشق الطرق فضلاً عن تدمير تحصينات الأعداء، ويضاف لها تشييد السلالم أو المنحدرات والكبائش المستعملة لدك الأسوار(٢٠).

لجأ الآشوريون إلى استخدام الحرب النفسية بصور مختلفة واستخدام أسلوب "التخنيث" لسكان الأعداء، وهذا النوع حمى الآشوريون في حرب العصابات بعد الانتصار على جيوش أورارتو وزيكيريتو(٢١).

اعتمد الملوك على الفرسان أو الخيالة في حروبهم، وكانت قواعد انطلاق حملاتهم من أربيل ونينوى فضلاً عن مدينة كالح(٢٢).

العصر الآشوري الحديث/ سير الحملات:

بدأ العصر الآشوري الحديث أو عصر الإمبراطورية مع بداية حكم الملك أدد نيراري الثاني عام ٩١١ ق.م واستمر العصر حتى سقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م ثم السقوط الثاني عام ٦٠٥ ق.م.

خلال مرحلة الثلاثة قرون برزت إمبراطوريتان آشوريتان قدر لهما التاريخ بلوغ التوسع العسكري الآشوري مداه إلى مصر.

وقد استمرت الحملات في الجبهات الثلاث فضلاً عن الجبهة الرابعة في بابل بشكل دوري متكرر اتخذت صوراً مختلفة بين إعادة فرض الهيمنة الآشورية والانتقام من الامتناع عن دفع الجزية، وتارة أخرى التوسع والسيطرة وحماية الحدود الخارجية للإمبراطورية، على أنها لم تخرج عن النطاق الاقتصادي مؤطر بالإطار الديني، أي أنها بتوجيه من الإله آشور ومساندة عشتار وقوة سلاح الآلهة.

أشارت حوليات الملك أدد نيراري الثاني إلى توسع عسكري على طول نهر الفرات تجاه بابل، وقد خاض حروباً طويلة مع الملك البابلي وقتذاك نابو–شوم–أوكن بين الأعوام

(٩١١-٩٠٢ ق.م) فيما يلاحظ استمرار الصراع الآشوري البابلي طيلة العصور الآشورية[٢٣].

واستمرت الحملات في عهود الملك آشور ناصر بال الثاني الي يدعي استيلائه على حصون بابلية مثل خيرمو وخاروتو.

يذكر أن الملك أدد نيراري الثاني عمل على تقوية الجيش وقاد حملة إلى المنطقة الشمالية الغربية، كما أنه في عهده أقام الآراميون جبهة متحدة لقبائلهم مما شكل خطراً أمام التوسع الآشوري، لذا قال في حولياته أنه قاد ست حملات عسكرية سنوية لإخضاعهم كانت أقسى معركة في موقع التقاء الخابور بالفرات وكان ذلك في عام ٩١٠ ق.م، وقد نجح بعد حصار نصيبين من السيطرة على المدينة التي كان يحكمها نور أدد، فضلاً عن إخضاع السكان الحيثيين الجدد والحوريين القاطنين شمال سوريا. ولم ينسَ بابل، كما جرد حملة عسكرية شمال نهر ديالى ومدينة هيت، وربما السبب كون هذه المناطق تمثل خطوطاً تجارية تسلكها القوافل فضلاً عن تأمين الحدود الجنوبية للإمبراطورية الآشورية[٢٤].

بيد أننا نلمس في عهد توكولتي ننورتا الثاني (٨٩١-٨٨٤ ق.م) تبدلاً بسيطاً في السياسة العسكرية تمثلت بتشكيل فرقة عسكرية هجومية من قبيلة ايتوي الآرامية، واستلام جزية من الآراميين شملت الذهب والفضة والمر والجمال والعاج ومواشي وأغنام وحمير وبط وحبوب فضلاً عن استلام الخيول من المناطق الشمالية[٢٥].

كانت من ضمن أهداف الحملة العسكرية هو لاستلام الجزية فضلاً عن قمع التمردات.

لقد ابتدع الملك آشور ناصر بال الثاني (٨٨٣-٨٥٩ ق.م) أساليب قاسية منها القتل والحرق وسمل العيون والتمثيل بالضحايا فضلاً عن التهجير القسري، واتصف بالقسوة والقوة وكثرة حروبه.

إن أهداف الحروب في عصر الإمبراطورية الآشورية لم تكن إلا دفاعية محضة، وهي وقائية استهدفت حماية أرض إله المدينة آشور، فكان النصر يقود إلى الغنائم والأسرى فضلاً عن الجزية، وكذلك نظرة الآشوريين إلى التطلع للاستحواذ على مناطق صيد واسعة لشن حملاتهم العسكرية دون مواجهة مقاومة كبيرة، لذلك قامت الحروب المتكررة فضلاً عن

الدوافع الدينية فكانت الحملة الآشورية في حقيقتها إجراء وقائي دفاع عن النفس وهي حملة دينية. وهذا ما جعل الغنائم والأسلاب والجزية مصدر الرفاه الاقتصادي ووسيلة إضعاف الأعداء أو الخصوم فضلاً عن عدها رمز لانخذال واستسلام آلهة البلدان أمام قوة الإله آشور[٢٦].

وبالشكل التدريجي أصبحت الحروب تستهدف ضم الأراضي والبلدان، وأصبحت تكاليف الحملة باهظة مع ازدياد منافسي الآشوريين بالعدد والصلابة، ومع بعد المسافات بين العاصمة والأقاليم أضحت عملية استيفاء الجزية صعبة وقادت بالوقت نفسه وشجعت التمردات والثورات مما استلزم في العرف العسكري الآشوري القيام بالحملات التأديبية أو الانتقامية والتهجير مع ما صاحبه من قتل ونهب وسلب وحرق للمدن.

ذكرنا آنفاً بعض الأمثلة لسلسلة الحروب الاشورية ومنها حملات الملك آشور ناصر بال الثاني، والحقيقة التي يجب ذكرها أن هذا الملك يمكن اعتباره مثالاً للإمبراطورية الآشورية الأولى بوصفه مبتدع أساليب قتالية وانتقامية متعددة، ففي المجال التوسعي غزوه للمناطق الجبلية شمال بلاد الرافدين وصولاً إلى وادي نهر دجلة الأعلى حيث استلم الجزية من أمراء محليين. وباعتقادنا أن هذه الحملة هدفها تأمين مناجم ربما النحاس أو الذهب، فضلاً عن استلامه هدايا من الموشكينيين أو الفريجيين وهم قبائل هندوأوروبية والذين كانت مدنهم أو تواجدهم على السفوح الجنوبية لجبال طوروس، وقاد حملات وصفت بالتأديبية إلى مناطق جبال الكاشياري في أرض زاموا (مناطق محيطة بالسليمانية حالياً). وكان توجهه لاحقاً نحو سوريا فكانت مملكة بيت أديني الآرامية محطته الأولى حيث أسقط مدينة كايرابي (أورفة حالياً) مما اضطر حاكمها لجلب الجزية وإيداع رهائن لدى الآشوريين. وبالخطوة المشار إليها فتح طريق سوريا من كركميش إلى ساحل أنطاكيا فنزولاً إلى ساحل لبنان حيث البحر المتوسط.

استلم الجزية من جزيرة أرواد السورية، وقد شملت الذهب والفضة والقصدير والنحاس والملابس والأخشاب والعاج[٢٧].

لم تكن كل الحملات العسكرية الآشورية قتالية بل أحياناً استعراض للقوة والتذكير بالمصير الذي ستؤول إليه المدن الثائرة أو المتمردة، مثالنا الواضح هو الملك توكولتي ننورتا

الثاني الذي حكم بين الأعوام (٨٩٠-٨٨٤ ق.م) ففي إحدى حملاته كانت مجرد استعراض للقوة ونشر الرعب بين الشعوب.

إذ بدأ مسيرة عسكرية من العاصمة متجهاً للغرب وهدفه إرهاب القبائل الآرامية وتأكيد سطوته وفرض الطاعة. ثم عاد وسار إلى الجنوب نحو بلاد بابل والهدف ذاته[٢٨].

تعرض الآشوريون لمواقف صعبة فكانت إحدى دوافع الحملات صد وإنهاء التحالفات العسكرية، بمعنى آخر حملات للدفاع عن النفس.

ففي عهد الملك شلمنصر الثالث (٨٥٨-٨٢٤ ق.م) تصدى لتحالف عسكري كبير ضم القبائل الآرامية مع القبائل العربية وغيرهم في معركة من أشهر المعارك التي خاضها الآشوريون ألا وهي معركة القرقر الواقعة على نهر العاصي في لبنان وذلك عام ٨٥٣ ق.م. وهنا ورد ذكر العرب لأول مرة وذكر الملك جند بو ويدعي الانتصار فيها رغم علمنا بعدم حسمها لكلا الطرفين المتحاربين.

من الأهداف الأخرى حملات لتأمين منابع الأنهار، وهو ما حصل حينما سار إلى منابع نهري دجلة والفرات لتأمينهما.

أحياناً الحملات قصد منها مساندة الحلفاء، والمثال الواضح عندما هب شلمنصر الثالث لنجدة الملك البابلي مردوخ-زاكر-شومي من ملوك سلالة بابل الثامنة بعد تهديد الدويلات الآرامية جنوب بابل لمملكته فكان أن دخل بابل ودحر المعتدين وفلولهم وصولاً إلى سواحل الخليج العربي[٢٩].

ليست كل الحملات العسكرية ينالها الانتصار أو هكذا تنتهي، فأحياناً الفشل يصيبها ويخفق الملك الآشوري في تحقيق الهدف المرجو من الحملة كما حصل مثلاً عندما فشل شلمانصر الثالث باحتلال دمشق، ولأجل التغطية قطع أشجار الغوطة وخرب البساتين لكن الملك تجلات بليزر الثالث تمكن عام ٧٣٢ ق.م من إسقاط دمشق عاصمة مملكة آرام دمشق الآرامية، وكان من تداعياتها مصرع الملك رصين أو رزين وتهجير سكانها المتبقين[٣٠].

وهذه السياسة (التهجير) كانت متبعة طيلة الحملات العسكرية، فكانت السلاح الاقتصادي والاجتماعي في السياسة العسكرية.

في عام ٧٣٢ ق.م بعد إسقاط دمشق عيّن الملك تجلات بليزر الثالث شيخ إحدى القبائل العربية جنوبي غزة في منصب خفير بوابة مصر إذ كان المعتقد لدى الآشوريين انهيار وشيك لمصر، وفي ذات الوقت كعين لمراقبة مصر وتحركاتها.

وسياسة التعيين والاستعانة بشيوخ القبائل كأمراء زحف استمرت في العصر السرجوني وهم كما أوضحنا كانت مهمتهم مراقبة مداخل سيناء إلى الدلتا، وكانت من الأسباب الموجبة للقبائل العربية سياسة مصر ومعاملتها للبدو كأشخاص دون المستوى الحضاري وهو ما قاد شيوخ القبائل إلى تأييد الآشوريين ضد مصر وكانوا سبباً في تسهيل الزحف الآشوري إلى مصر لاحقاً(٣١).

لقد اتخذ الملك الاشوري تجلات من سوريا مقراً له لانطلاق حملاته العسكرية تجاه مملكة أورارتو وقد لجأ الآشوريون إلى عمل كمائن لقوات حلف أورارتو، نتج عن الحملة الكبيرة المجهزة عدة وعدد في هزيمة التحالف بقيادة ملك أورارتو ساردر ليقود حملة أخرى صوب إقليم نائيري جنوب غرب بحيرة وان وشمال مقاطعة تشخان ومنطقة القبائل أعالي الزاب الأعلى، وقد استعمل سياسة ترحيل السكان المحليين وإعادة إسكان المنطقة بالأسرى من مناطق مختلفة(٣٢).

من الأسباب المباشرة لتحريك القطعات العسكرية تقارير الاستخبارات عن حشد القوات لاسيما أورارتو، هذه المملكة تقع في محيط بحيرة وان التركية حالياً وغالباً ما تبدأ بمناوشات صغيرة لاستعادة قرية أو اثنتان احتلتهما أورارتو، وعادة ما يطلب الملك انسحاب القوات الغازية والرفض يقود للحرب.

وحالة التمرد هي الأخرى من دوافع الحروب التي صبغت الحضارة الآشورية من الناحية العسكرية فكانت من تداعياتها قمع التمرد وتدمير المدن وإحراقها، وكعقاب للملك المتمرد يسلخ جلده حياً ويسمر بالمسامير، ويرحل السكان، وهذا ما يحدث في كل حملة عسكرية تأديبية انتقامية(٣٣).

الأسرة السرجونية:

أفردنا عنوان الأسرة السرجونية بوصفها تمثل الصفحة الأخيرة في سلسلة التاريخ الآشوري مع كثرة وتكرار الحروب على الجبهات المختلفة الشرقية، الشمالية، الجنوبية، الغربية لتكون في نهاية المطاف الجبهات كافة عدا الغربية قد اتحدت ضد القوة الآشورية، وبالتالي إسقاط نينوى التي لاقت المصير الذي أذاقته لممالك الشرق القديم وقتذاك.

تنتسب الأسرة السرجونية إلى سرجون الآشوري أو الثاني الذي حكم بين الأعوام (٧٢١–٧٠٥ ق.م) ومنه حكم أبناؤه وأحفاده أمثال سنحاريب واسرحدون وآشور بانيبال حتى سقوط نينوى عام ٦١٢ ق.م وانسحاب فلول الجيش الآشوري إلى كركميش وصولاً إلى العام ٦٠٥ ق.م حيث انتهى الوجود الاشوري، وأسدل الستار على أقوى وأعظم امبراطورية عرفها العالم القديم.

ففي عصر سرجون الثاني (٧٢١–٧٠٥ ق.م) وتحديداً العام السابع من حكمه، شن حملة عسكرية ضد العرب الثموديين ومدن ترسمان وهيبا، والهدف السيطرة على الطرق التجارية فضلاً عن منافسة مملكة سبأ التي حاولت التخلص من منافسة عرب الجزيرة في تجارتها والسيطرة على طرق تجارة البخور والتوابل والعطور.

يضاف إليها أن سقوط السامرة أدى إلى تردي الأوضاع بين مصر وآشور، فالمعلوم أن سرجون قاتل جيشاً مصرياً قرب غزة واستولى على مدينة البليزيوم (العريش حالياً) وأقام حامية عسكرية وتجارية على حدود مصر[٣٤].

اشتهر سرجون لدى المؤرخين بحملته الثامنة التي انطلقت من كالح ووجهتها بلاد أورارتو متخذاً في عبور نهري الزاب الأسفل والأعلى طريقاً له هدفها قمع التمردات ونتج عنها سقوط معاقل المملكة وتم إحراق المدن وصادر مخازن الغلال، ثم كان توجهه نحو مدينة مصاصير الواقعة غرب بحر قزوين وجنوب بحيرة وان في عهد ملكها أورزانا. وكان سبب الحملة نقض العهد مع الآشوريين وعدم إرسال الهدايا مما اعتبره الآشوريون تحدياً لسلطتهم وتمرداً على الآلهة، وقد نتج عنها سقوط المدينة وغنم تمثال إله مصاصير الإله هالديا فضلاً عن أسر العائلة المالكة[٣٥].

نظر الآشوريون إلى الحرب كونها أعمال تجارية بدليل قوائم الغنائم والتي كانت إحدى مصادر الدخل، وعندما تكون مصدراً للإيرادات فإنها تعتبر من الفرص النادرة.

لقد كانت حملة مصاصير تأديبية، كان حكم سرجون سلسلة متتابعة من الحملات العسكرية هدفها إخماد ثورات الأقاليم التابعة للإمبراطورية بسبب تدخلات العيلاميين في شؤون بابل ومصر في الشؤون السورية مما استدعى قيام سرجون بحملة ضد عيلام عام ٧٢٠ ق.م ولم يستطع حسم المعركة لصالحه، وفي نفس العام أرسل حملة إلى الجبهة السورية تمكن من خلالها من سحق حلف عسكري قاده ملك حماه ايلو–بعدي باشتراك قوات مصرية. وفي عام ٧١٣ ق.م أرسل حملة إلى بلاد إيران حيث استولى على مدن في إقليم كرمنشاه وهمدان، وتبع ذلك ثورة القبائل الإيرانية بتحريض من مملكة أورارطو في عهد ملكها روساس.

قاد حملات عديدة إلى آسيا الصغرى، واستطاع ضم ممالك مثل كيليكيا وفريجية، وتسلم هدايا من ملوك ياتنانا السبعة أمراء قبرص. وتعرض لمملكة إسرائيل وأزالها من الوجود ونقل الكثير من أهلها أسرى وأسكنهم في بلاد ماذي وأسكن بدلاً عنهم جماعات من بلاد بابل وأعاد السيطرة على بابل(٣٦).

يقال بعد تدمير مدينة حماه ونفي أهلها واصل سرجون تقدمه نحو الجنوب لملاقاة الجيوش المصرية وغزة حيث دارت معركة في رفح وانتهت بانتصاره حيث وجه خطاباً إلى ضباطه قائلاً: "إنه غيّر معالم الحدود ونقل السكان من بلد لآخر حسبما تقتضيه المصلحة وسلب كل موارد الأعداء التموينية ومرغ عروش الملوك في التراب ووضع كلتا يديه على كل الثروات لهذه الشعوب مثلما يؤخذ البيض من العشوش (الأعشاش) المهجورة".

وضع سرجون يده على كل هذه الأملاك دون منازع، وبعد الآن يستحيل على أي واحد أن يتكلم(٣٧).

بهذه الكلمات يمكننا القول أن الأسباب الموجبة أعلاه كانت من ضمن أولويات الحروب المتكررة للآشوريين وأهدافها واضحة وتداعياتها حتمية.

لكنه أحياناً تكون الحروب سبباً في مصرع الملوك الآشوريين وهو ما حصل فعلاً مع سرجون.

نعلم جيداً أن مشكلة سرجون الرئيسة بلاد أورارتو التي كانت تحت ضغط القبائل الإيرانية المهاجرة والمتنقلة صوب الجنوب والغرب من سهول روسيا ومنهم الميديون، ولعل الرغبة في قطع الطرق التجارية وتحويلها خاصة الطريق الشمالي عبر أرضروم وطرابزون إلى الطريق القديم هو من جملة أسباب الحروب التي خاضها سرجون، لذا ممكن القول أنها حروب تأديبية أو انتقامية لكنها لا تخلو من منفعة اقتصادية.

مع أواخر حكم سرجون اندفعت قبائل عرفت بشدة مراسها بالحروب وقوتها وهي القبائل السميرية التي اصطدمت بالقوى المسيطرة على الأرض أواخر القرن ٨ ق.م وأوائل القرن ٧ ق.م. ولقوة سرجون اندفعت نحو غرب الأناضول بعد اشتباكه معهم في حملة اعتراضية عام ٧٠٥ ق.م إذ تم إنقاذ سوريا من السقوط بأيديهم وإجبارهم على الاتجاه نحو غرب آسيا الصغرى كان من نتائجها مقتل الملك سرجون[٣٨].

مع وصول سنحاريب (٧٠٤-٦٨١ ق.م) إلى الحكم بلغ عدد حملاته ثمانية لبلاد الشام ومن المحتمل حملتين إلى فلسطين عام ٧٠٠ ق.م، والثانية قبيل مقتله وصل فيها حدود مصر ما بين الأعوام (٦٨٨-٦٨١ ق.م).

قاد حملة إلى كيش عام ٧٠٢ ق.م واشتبك مع العرب وأسر بسقانو وهو شقيق ملكة العرب يانعه وغنم من خزعل ملك العرب ألف جمل مع أحجار كريمة.

وكانت مشكلته بابل إذ بسبب ثوراتها المتكررة حاصرها سنحاريب في عام ٦٨٩ ق.م وكانت النتيجة المتوقعة تدمير مدينة بابل تدميراً كاملاً.

فضلاً عن ذلك قاد حملات برية مرافقة لحملة بحرية صوب الجنوب متعقباً شيخ قبيلة بيت ياكين مردوخ بلادان، لكنه لم يظفر به، كما أنه قاد حملات ضد البدو والعرب واكتفى باستلام الجزية منهم[٣٩].

كانت حملات سنحاريب إلى الشمال والغرب متوسطة الأحجام والأهداف ولم يتعرض إلى السميرين ولا إلى الميديين بل استهدف تأديب المتمردين من أمراء المنطقة الوسطى في جبال زاكروس ومدن كردستان وحكام قلقيليا.

عام ٧٠١ ق.م اشتبك مع جيش مصر وهاجم مملكة يهوذا حيث دخل مدينة لخيش وحاصر أورشليم لكنه انسحب بعد دفع الجزية، ومنذ عهده وإلى سقوط نينوى ولتدخل العيلاميين في شؤون بابل وتحريضهم المستمر على الثورات بدأت سلسلة الصراعات الدموية بين الآشوريين والعيلاميين انتهت بتدمير عيلام وعاصمتهم سوسة(٤٠).

وتذكر المصادر الآشورية أن الملك سنحاريب خاض منذ حملته الأولى حرباً ضد حلف بابلي عيلامي كما ذكرنا وكانت ساحة المعركة في مدينة كيش حيث انتصر وغنم جميع العربات والخيول والبغال والخزائن مع الأسرى من الرجال والنساء فضلاً عن تحالف القبائل العربية مع الآرامية والكلدية، ويذكر انتصاره وكان أن غنم منهم وفرض الجزية عليهم.

فيما قام بحملة ثانية في بلاد الكاشيين ولجأ إلى التهجير السكاني وإحلال أناس آخرين محلهم، كما غزا بلاد الميديين. وهكذا نلاحظ تصديه لحلف مصري مع إسرائيل وأنه أخضع مملكة إسرائيل ثم عاد مرة أخرى لبابل ليخمد ثورة ضده(٤١).

انتهت حياة سنحاريب باغتياله من قبل أحد أبنائه ليتولى أسرحدون مقاليد الحكم بعد تصفية معارضيه، فسّر أسرحدون تحالف طهراقا ملك مصر مع صور وصيدا على كونه إعلان حرب فكان السبب لبدء استراتيجية الحرب الشاملة ضد مصر، وكخطوة أولى استولى على جنوب النقب حيث نصّب حاكماً في تل بيمه وأقام حاميات آشورية امتدت من رفح حتى بئر السبع أتبعها بحملة ضد الفينيقيين صور وصيدا حلفاء مصر فتمكن من تدمير صيدا وإعدام ملكها فيما استسلم ملك صور بعلو ووقع معاهدة مع أسرحدون هدفت إلى منافع سياسية واقتصادية، وكان الهدف الرئيس الذي ظهر كأنه حرباً تأديبية أو وقائية بل غزو مصر(٤٢).

عام ٦٧٤ ق.م بدأت المحاولة الأولى، وكان الإخفاق واضحاً إذ تمكن المصريون من إلحاق الهزيمة بالآشوريين عند الحدود الشرقية للدلتا، وربما يعود السبب لسلوك طريق محاذاة الساحل عبر رفح والعريش، وهو طريق القوافل وينتهي عند صايل المحطة الحدودية جيدة التحصين فيما كان هناك طريق جنوب العريش ويمكن سلوكه ودخول مصر عن طريق وادي الطوميلات والبحيرات المرة.

عام ٦٧١ ق.م في مطلع الصيف بدأ الزحف الآشوري الذي وصل الدلتا وفاجأ أسرحدون الملك طهراقا حيث دخل الآشوريون مصر ووصلوا منف التي نجح أسرحدون في دخولها(٤٣).

عاد أسرحدون لقيادة حملة عسكرية ثالثة لمصر إلا أنه أصيب بمرض فتوفي(٤٤).

يتضح لنا إن الاستراتيجية للمؤسسة العسكرية الآشورية تبدلت في العهود الأخيرة من حكم الأسرة السرجونية إذ اتجهت إلى استهداف منابع التحريض ضد الوجود الآشوري فبدأت بمصر وانتهت بعيلام كونهما المدبران للتحريض، فالأولى بلاد الشام ومملكة إسرائيل، والثانية اختصت ببلاد بابل، لكن التحريض سوف يستمر بعد سقوط نينوى حتى في أيام نبوخذ نصر الثاني الملك الكلدي.

أسرحدون لم يقد حملات في بلاد الشام فقط بل شملت تحركاته العسكرية قبائل السميرين والمانئيين وسيطر على بلاد الميديين (إيران حالياً)، ذكر أنه سيطر على مدينة دومة الجندل (المملكة السعودية) وأسر ملكة العرب اسقلات، ذكر حملة قادها بنفسه إلى بلاد بازو ووصفها أرض صحراء قليلة المياه أراضيها رملية وجبالها صخرية عالية(٤٥).

إن السياسة الآشورية المتمثلة بضرب مواقع التحريض استمرت خلال عصر الملك آشور بانيبال بالرغم من الهدوء الذي ساد السنوات الأولى من حكمه، وبعدها نلاحظ قيادة الملك آشور بانيبال حملات لقمع التمردات والعصيان ضد ملك صور بعالو وأياكن–لو ملك أرواد وانتهت حملة صور بالاستسلام بعد حصارها. كما أنه قاد حملة إلى مصر واستطاع دخول طيبة، لكن الآشوريين لم يستطيعوا الاحتفاظ بمصر إلا قليلاً فكانت حملته تأديبية. بعد تمرد بابل بقيادة أخيه شمش–شم–أوكن وسحقه لهذا التمرد بحملة عسكرية قرر الانتقام

من عيلام المحرض الرئيس فكانت مجريات الأحداث التي قادت لقيادة حملة عسكرية انتقامية ضد مملكة عيلام. إن سببها مطالبة ملك عيلام تيومان من آشور بانيبال تسليمه اللاجئين من أعدائه أي المعارضين له، وكنتيجة حتمية للرفض الآشوري اندلعت الحرب بين المملكتين إذ كان النصر حليف الملك آشور بانيبال في موقعة توليز على نهر الكرخا فضلاً عن مقتل تيومان وتدمير العاصمة وتهجير سكانها وإزالة مبانيها وقبورها.

كذلك قاد حملة تأديبية وانتقامية ضد قبائل الكامبولو الآرامية وحارب الأنباط وحلفاؤهم ملك أواتع وقبيلة قيدار لملكها أبياتغ(٤٦).

ومن أبرز معالم سياسة آشور بانيبال تجاه عيلام غير المألوفة تقييد وأسر الأسرة الحاكمة وأسر النبلاء ونثر الملح فضلاً عن نبش القبور ونهب المقابر الملكية(٤٧).

من الجبهات التي شغلت فكر آشور بانيبال تغلغل قبائل السميرين والأسيكيثيين نتيجة توجههم نحو مملكة ليديا التي كانت بقيادة جيجس إذ طلب الأخير المساعدة من آشور بانيبال، فقدم له المساعدة واستطاعت الحملة الآشورية–الليدية تحقيق أهدافها في صد الغزو السميري. إلا أن ملك ليديا تحالف مع بسماتيك ملك مصر لطرد الآشوريين.

وعليه من المحتمل أن الملك الآشوري وبتحريض منه قاد السميريون هجوماً ضد ليديا نتج عنه مقتل الملك جيجس وزوال مملكته(٤٨).

اتسمت العمليات الآشورية ضد قبائل السميرية والأسكيثية بعدم تدميرهم بل إبعادهم.

لقد كانت مملكة أورارتو الحد الفاصل بين تلك القبائل وبلاد آشور وبسقوطها أصبحت آشور أمام الغزو السميري والأسيكيثي، ويعتبر عهد سرجون بداية الاصطدام، وركز أسرحدون على قتالهم واستمروا في عهد آشور بانيبال وكانوا سبباً مباشراً في تحالف عسكري ضم مملكة الميديين بقيادة كي أخسار ومملكة بابل الكلدية بقيادة نبوبلاصر، وهذا التحالف اشتركوا فيه حيث كان موجهاً ضد الآشوريين الذين بدأوا يفقدون مدنهم الواحدة تلو الأخرى وصولاً إلى نينوى التي سقطت عام ٦١٢ ق.م وحل بها ما حل بالمدن التي غزاها الآشوريون قبلاً.

وبذلك انتهى الوجود الآشوري ولم ينفع انسحاب الآشوريين إلى حران ثم كركميش حيث دارت المعركة النهائية عام ٦٠٥ ق.م والذي يعد تاريخ نهاية حروب الآشوريين وتاريخهم المجيد بعد صراع بابلي آشوري امتد لقرون ليحسم على يد نبوخذ نصر الثاني القائد الكلدي وولي عهدها في معركة كركميش التي اشترك فيها المصريون، لكن القدر المحتوم قال كلمته.

الخاتمة والاستنتاج:

يعد التاريخ الآشوري في بلاد الرافدين من أطولها زمناً، وعليه فقط قسمه الباحثون إلى ثلاث مدد زمنية بدءاً من العصر البابلي القديم، ويمكن اعتبار العام ٢٠٠٦ ق.م سقوط سلالة أور الثالثة بداية الظهور للقوة الآشورية وتبلورها لاحقاً إلى إمبراطورية وصولاً إلى العام ٦١٢–٦٠٥ ق.م نهاية الدور السياسي والعسكري للآشوريين.

خلالها أثبتوا مقدرتهم الإدارية والعسكرية منذ العصر القديم، إذ كانت الحروب توسعية اقتصرت على بعض التحركات العسكرية، بيد أنه في عصر الملك شمشي أدد الأول كانت الحرب ضد مملكة ماري توسعية وانتقامية فضلاً عن كونها تمثل تدخلاً عسكرياً لصالح إنهاء مملكة ماري أي ضمها.

ومع العصر الوسيط ولحظة خضوع بلاد آشور لمملكة الميتانيين كانت هي الفارق في حياة الآشوريين ونقطة الانطلاق نحو التخلص أولاً من الهيمنة الميتانية والانتقال لمبدأ الهجوم، ولذا أرى أن الحروب الآشورية هي من باب أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم فكانت بداية دوافع الحروب دفاعية ثم تطورت إلى الهجومية والانتقامية أو التأديبية، ويكفي أن يمتنع الملك الخاضع للسلطة الآشورية عن دفع الجزية حتى يكون السبب في مقتله وتدمير مملكته.

إذاً الحرب كانت لها دوافع اقتصادية والسيطرة على طرق التجارة القديمة مع مواقع المناجم لاسيما الحديد والنحاس فضلاً عن التوسع والسيطرة، ولا ننسى الأيدي العاملة. ولتحقيق الأهداف اعتمد الآشوريون على تهيئة جيش قوي ذي تسليح متقدم وقتذاك، لذلك

يعد الجيش الآشوري الأقوى عدة وعدد في العالم القديم، وكان للحديد دور متميز في نوعية السلاح المستخدم فضلاً عن التدريب والتنظيم.

ضمن الآشوريون من حروبهم الحصول على الأموال والسلع والهدايا فضلاً عن الأسرى كأيدي عاملة، واتبعوا سياسة الترحيل ضد المدن التي كثيراً ما تثور ضدهم أو التي تمتنع عن دفع الجزية (صورة من صور الاقتصاد الآشوري).

إن ظاهرة التهجير القسري التي اتبعها الآشوريون كان هدفها عدم تكرار محاولات التمرد والتخلص من الحكم الآشوري وسياسات التدمير هدفها اقتصادي سياسي هو حرمان المدن المتمردة من مواردها الاقتصادية، وبالتالي لا تقوى على إعادة المحاولات مرة أخرى. وبخصوص دفع الجزية أو هدايا الولاء فهي باب من أبواب الاقتصاد وإن كان الهدف منها خضوع واعتراف بشرعية الحكم إلا أنها ساهمت في رفد الاقتصاد الآشوري بالسلع والمعادن وهو نوع من أنواع التجارة "تقصد بها الجزية" مع مراعاة الحرب النفسية من خلال تعداد مواد الجزية، وفي ذات الوقت إعلامية لإرهاب الخصوم وكلها مغلفة بمردود ديني وكأنها هبة لإله المدينة آشور وبمباركة منه وبمساعدته قد حقق الملك نصره.

يتضح مما ذكرناه أن دوافع واسباب الحملات العسكرية متعددة ومختلفة منها الدفاعية ومنها التأديبية أو الانتقامية لاسيما التمرد وقطع الجزية أو الامتناع عن تأديتها، فضلاً عن الحروب ضد القبائل للسيطرة على طرق الإمداد والتجارة في المنطقة فضلاً عن التوسع والسلطة وكلها تصب في الجانب الاقتصادي ومنها توفير أيادي عاملة من الأسرى والحرفيين وكذلك المرتزقة للخدمة في صفوف الجيش الآشوري. هذا كله قاد في النهاية إلى ضعف الإمبراطورية الآشورية وتفككها وإنهاك اقتصادها وإصابة أفراد الجيش الآشوري بضغط نفسي سرعان ما أدى إلى انهيارها بعد التحالف الثلاثي الذي جمع الكلديين عن بابل والميديين شرقاً والسيكيثيين (قبائل الشمال) وإلحاق الهزيمة بالآشوريين وإسقاط عاصمتهم نينوى كلها اجتمعت بعد هزيمة آشور في مصر وانسلاخ الأجزاء الغربية عن التبعية الاشورية فكانت عاملاً حاسماً في الهزيمة والسقوط.

إن أبرز تداعيات الحملات المتكررة إضعاف الاقتصاد والإمكانيات المادية فضلاً عن تدمير المدن وإحراقها وإفراغها من سكانها وإمكانياتها (الغنائم) أدى إلى زيادة الشعور النفسي

بالظلم، وهذا ما يفسر كثرة الثورات والتمردات فضلاً عن التحريض سواء من مصر القديمة أم من مملكة عيلام أم مملكة أورارتو.

لقد اتبع الآشوريون سياسة التهجير والتدمير (سياسة الأرض المحروقة)، وهذا قاد إلى ظهور أقليات في نسيج المجتمع الآشوري، ومع اختلاف الثقافات والأديان أو المعتقدات قاد في أحيان إلى تمازج واندماج لاحظناه في الفن الآشوري على سبيل المثال ونعني الحيوانات المجنحة والإنسان المجنح وإن كان التجنيح قد ظهر أواخر العصر البابلي القديم، إلا أننا نرجح تأثر الفنان الآشوري بالمعتقدات السائدة من الأقوام التي كانت تقطن بلاد الشام.

في ذات الوقت لا نستبعد أن تكون للأقليات الحالية جذور تاريخية تعود إلى زمن الحقبة الآشورية، ولها امتداد تاريخي متأصل.

وعلى أية حال قادت الحملات إلى تدمير المدن والممالك مع إفراغها اقتصادياً ومادياً وزيادة النقمة الاجتماعية، وهذا هو سبب كثرة الثورات واتحاد الخصوم أو الأعداء في جبهة واحدة للتخلص من عدوهم المشترك، وهو ما حصل فعلاً في إسقاط نينوى وفق أساس القاعدة "عدو عدوي صديقي".

ومع ازدياد الثراء الآشوري ازداد الفقر في الجانب الآخر المقابل، ومع الفقر تزداد المعاناة وهو الذي يولد الكراهية ويعمل كالنار في الهشيم فتتولد الثورات والانتفاضات التي تقود إلى الحروب والدمار والانتقام.

تفككت الإمبراطورية الآشورية بعد ضياع مصر التي سرعان ما استعادت نشاطها الدبلوماسي في عهد بسماتيك الأول مؤسس السرة ٢٦ وتحالفه مع الإغريق والليديين ضد الآشوريين واستعادة بلاد الشام مع نمو المملكة الكلدية في بابل وقوة القبائل السيكيثية والسميرية في الأناضول وقوة المملكة الميدية كلها عوامل قادت إلى الانهيار المتوقع عام ٦١٢ ق.م.

وبذلك فمعادلة كثرة الحملات والحروب تقود إلى ضعف الاقتصاد وانهياره يؤدي إلى السقوط والفقر وضعف المجتمع.

الهوامش:

(١) طه باقر، مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ج١، ط١، مطبعة الحوادث، بغداد، ١٩٧٣، ص٤٧١-٤٧٤.

(٢) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين: دراسة في تاريخ وحضارة العراق القديم، ج٢، ط١، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ٢٠١٧، ص١١١-١١٢.

(٣) المصدر نفسه، ص١٢٢.

(٤) جورج رو، العراق القديم، ترجمة: حسين علوان حسين، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٨٤، ص٣٥٢-٣٥٣.

(٥) المصدر نفسه، ص٣٥٤.

(٦) ليو أوبنهايم، بلاد ما بين النهرين، ترجمة: سعدي فيضي عبد الرزاق، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١، ص٢٠٧-٢٠٨.

(٧) طه باقر، مصدر سابق، ص٤٨٨.

(٨) محمود حمّود، الممالك الآرامية السورية، دار آرام للنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠١٩، ص٥٤.

(٩) دونالد ريدفورد، مصر وكنعان وإسرائيل في العصور القديمة، ترجمة: بيومي قنديل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣، ص٥٠٩.

(١٠) صلاح رشيد الصالحي، مصدر سابق، ص١٣٤-١٣٦.

(١١) عبد الرضا الطعان، الفكر السياسي في العراق القديم، القسم الأول، دار الرشيد للنشر، بغداد، ١٩٨١، ص١٨٤.

(١٢) طه باقر، مصدر سابق، ص٣٨٩.

(١٣) صلاح رشيد الصالحي، مصدر سابق، ص١٣٩-١٤٢.

(١٤) جورج كونتينو، الحياة اليومية في بلاد بابل وآشور، ترجمة: سليم طه التكريتي وبرهان عبد التكريتي، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٩٧٩، ص٢٢٤.

(١٥) المصدر نفسه، ص٢٥٠-٢٥٢.

(١٦) المصدر السابق، ص٢٥٣، ٣٧٢.

(١٧) طه باقر، مصدر سابق، ص٥٣٥-٥٣٦.

(١٨) هاري ساكز، عظمة بابل، ترجمة: د. عامر سليمان، الموصل، ١٩٧٩، ص٢٩٩-٣٠٠.

(١٩) هاري ساكز، الحياة اليومية في العراق القديم-بلاد بابل وآشور، ترجمة: كاظم سعد الدين، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ٢٠١٧، ص١٧٤-١٧٥.

(٢٠) المصدر نفسه، ص١٧٦-١٧٧.

(٢١) المصدر السابق، ص١٨٦.

(٢٢) صلاح رشيد الصالحي، مصدر سابق، ص١٦٨.

(٢٣) المصدر نفسه، ص٣٨-٣٩.

(٢٤) المصدر السابق، ص١٦١.

(٢٥) المصدر السابق، ص١٦٢.

(٢٦) جورج رو، مصدر سابق، ص٣٨٤.

(٢٧) المصدر نفسه، ص٣٨٨-٣٩٠.

(٢٨) طه باقر، مصدر سابق، ص٤٩٩.

(٢٩) المصدر نفسه، ص٥٠٤.

(٣٠) محمود حمّود، مصدر سابق، ص٧٠.

(٣١) رونالد ريدفورد، مصدر سابق، ص٥١٥، ٥٢٣.

(٣٢) هاري ساكز، عظمة بابل، مصدر سابق، ص١٤١.

(٣٣) هاري ساكز، الحياة اليومية، مصدر سابق، ص١٦٤.

(٣٤) صلاح رشيد الصالحي، مصدر سابق، ص١٩٣.

(٣٥) جورج كونتينو، مصدر سابق، ص٢٦٦.

(٣٦) طه باقر، مصدر سابق، ص٥١٣.

(٣٧) محمود حمّود، مصدر سابق، ص٧٤.

(٣٨) صلاح رشيد الصالحي، القبائل السميرية والأسيكيثية-الردع الآشوري والأخميني ضد القبائل الهندوأوروبية، مجلة مركز إحياء التراث العلمي العربي، العدد الثاني، بغداد، ٢٠١٠-٢٠١١، ص١٧٠-٢٠٢.

(٣٩) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين، مصدر سابق، ص١٩٨.

(٤٠) جورج رو، مصدر سابق، ص٤٢٧.

(٤١) نائل حنون، حقيقة السومريين ودراسات أخرى في علم الآثار والنصوص المسمارية، دار الزمان، ط١، دمشق، ٢٠٠٧، ص١٤٩.

(٤٢) رونالد ريدفورد، مصدر سابق، ص٥٢٩-٥٣٠.

(٤٣) المصدر نفسه، ص٥٣١-٥٣٣.

(٤٤) صلاح رشيد الصالحي، بلاد الرافدين... مصدر سابق، ص٢٠٦.

(٤٥) المصدر نفسه، ص٢٠٧.

(٤٦) جورج رو، مصدر سابق، ص٤٤١-٤٤٥.

(٤٧) جورج كونتينو، مصدر سابق، ص٢٧١.

(٤٨) للاستزادة راجع: صلاح رشيد الصالحي، القبائل السميرية... مصدر سابق، ص١٧٠-٢٠٢.